قانون "عيد الفصح المجيد" البيزنطيّ

" نموذج في التعليم اللاهوتيّ"

*الأرشمندريت نيقولا أنتيبا، ق.ب**

المقدّمة

يُعدّ قانون عيد الفصح في التراث الليتُرجيّ اليونانيّ من القوانين المعروفة عند المؤمنين الذين يتهافتون لسماع ترتيلة صباح يوم أحد الفصح بعد رتبة الهجمة. يقول كتاب المراسم لهذا اليوم: "يدفع (المتقدّم) الباب ويدخل أمام الجميع إلى الكنيسة وهو ينشد ضابط النغم من التسبحة الأولى من قانون القيامة"[١]. ويعتبر التقليدُ الهمنوغرافيّ القدّيس يوحنّا الدمشقيّ ناظمَ هذا القانون. فالدمشقيّ معروف في هذا المجال وقد ترك لنا تراثًا غنيًّا في اللاهوت والعقيدة والهمنوغرافيا.

يمثّل هذا القانون الفصحيّ أهمّيّة الهمنوغرافيا ومكانتَها في صلاة الكنيسة الشرقيّة اليونانيّة لتصبح أسلوبًا تعبيريًّا في نشر الحقائق العقائديّة. تنطلق الهمنوغرافيا في تآليفها الشعريّة من **الكتاب المقدّس** في عهدَيْه، وتنهل من معينه، وتفسّر المراجع الكتابيّة مستندة إلى التقليد الذي وصلها في كتابات الآباء ومواعظهم. هكذا نجدنا أمام تشابك صريح بين الموضوعات الكتابيّة والفكر الآبائيّ في هذا النوع من الشعر الليتُرجيّ. ولا ننسى أنّ ترانيم سحر الفصح تؤلّف احتفالاً غنيًّا بالأناشيد حول موضوع قيامة المسيح.

وعلى مثال أكثريّة القوانين السحريّة في الطقس البيزنطيّ، يتألّف قانون الفصح في اليونانيّة من قصيدة شعريّة تتضمّن فقرات عديدة نثريّة، وتنطلق من التسابيح الكتابيّة الثمانية العاديّة التي تردّدها الكنيسة صباح كلّ يوم من الأسبوع. يؤلّف القانونُ الجزءَ الأكبر من همنوغرافيّة الفصح. إنّه يُنشِد، على غِرار سائر الأناشيد التي وُضِعت للعيد، قيامة المسيح، ويحتفل بالحديث العظيم الذي ترويه الأناجيل في فصولها الأخيرة حول زيارة القبر وترائيّات القيام من بين الأموات. كذلك يشدّد على أهمّيّة الحدث الخلاصيّ وتأثيره في مصير الجنس البشريّ، وبالتالي تحرير الإنسان من قضاء الموت ومنحه الخلاص.

---

* إكسرخُس بطريركيّ – باريس؛ أستاذ جامعيّ باحث في الشؤون الليتُرجيّة.

١: **كتاب الصلوات الطقسيّة على مدار السنة**، لكنيسة الروم الملكيّين الكاثوليك في أربعة مجلّدات، المجلّد الثالث، جونيه، لبنان، ص٤٧٩ (= كتاب، ٣). سيكون هذا الجزء الأخير مرجع الصفحات حيث انتقينا الصلوات.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

يستعمل المؤلّف في نظمه القانونَ الفصحيّ موادَّ كتابيّة غزيرة، ويجملها مع عناصر همنوغرافيّة مستوحاة من التسابيح التي تنشدها الكنيسة البيزنطيّة في صلاة السحر. نشير هنا إلى أنّ الكتبة الهمنوغرافيّين يلجأون إلى النصّ الكتابيّ المستعمل في ترجمة العهد القديم اليونانيّة أي الترجمة السبعينيّة[٢].كذلك ينتقي الناظم بعض المواضيع الكتابيّة الأخرى المختلفة عن هذه التسابيح. وتجدر الإشارة إلى أنّه يستعين بعناصر عديدة اختارها من عظات الآباء القدّيسين.

إنطلاقًا ممّا تقدّم، نقسم دراستنا إلى قسمين رئيسيّين. يتناول القسم الأوّل منها المراجع والموضوعات الكتابيّة الحاضرة في القانون الفصحيّ، ويتطرّق الثاني إلى تأثير الفكر الآبائيّ من خلال الخطب والمواعظ، وخصوصًا تأثير القدّيس غريغوريوس النزينزيّ في تأليف هذا القانون.

القسم الأوّل: قانون الفصح والكتاب المقدّس

١_ موضوعات التسابيح الكتابيّة السحريّة في القانون الفصحيّ

يعرضُ علينا القانون الفصحيّ وجوهًا عديدة من الموضوعات التي يختارها من هذه التسابيح الكتابيّة. فنجد تارةً ذكرًا بسيطًا أو إشارةً سريعة إلى موضوع التسبحة العامّ، وطورًا إعادة بعض التعابير والجمل الكاملة مع تفسير خاصّ بها. نجد ذلك خصوصًا في "الإرمس" (ειρμος) أو "ضابط النغم"، الذي يمثّل الفقرة الأولى أو النشيد الأوّل من كلّ أوذية (ωδη). وكما يدلّ عليه اسمه فإنّه يضع لُحمة بين التسبحة السحريّة وهمنوغرافيّة اليوم أو العيد. ويُعتبر نموذجًا موسيقيًّا وشعريًّا لسائر القطع[٣]. نشير هنا إلى أنّ التسابيح الكتابيّة كلّها، كما سنرى، مستقاةٌ من العهد القديم، ما عدا التسبحة التاسعة المستوحاة من العهد الجديد ومن إنجيل لوقا بالتحديد.

---

[٢]: نتبع نحن أيضًا هذه المراجع الكتابيّة. أمّا النصوص العربيّة فقد اتّخذناها من **الكتاب المقدّس**، دار المشرق، بيروت، ٢٠٠٤.

[٣]: راجعْ "دليل بأهمّ المفردات الطقسيّة" المستعملة في مقالنا في **كتاب**، **٤**، جونيه، لبنان ١٩٩٩. نبقي على استعمال كلمة "أوذية" لتدلّ على التسبحة الشعريّة الهمنوغرافيّة، وعلى عبارة "تسبحة" للدلالة على التسبحة الكتابيّة، وعلى عبارة "إرمس" لتدلّ على ضابط النغم، في حين تتّخذ صفة "النشيد" كلّ قطعة أخرى تنتمي إلى القانون. كذلك أبقينا على استعمال مفردة "همنوغرافيا"، كلمة يونانيّة الأصل، لندلّ بها على مجموعة التسابيح والقطع والترانيم والأناشيد التي نجدها في الكتب الطقسيّة؛ ويغدو "الهمنوغراف" ناظم هذه المجموعة أو مؤلّفها.

[٤]: Méliton de Sarde, *Sur la Pâque*, SC 123, Paris 1966, §68, pp.96-99؛ راجع نيقولا أنتيبا، "أحد الفصح في الهمنوغرافيا البيزنطيّة" في **المسرة**، ٨٣ (١٩٩٧)، ص٢٢٥-٢٤٠؛ كذلك للكاتب نفسه "درس لإيقونة القيامة بمناسبة ذكرى مرور ألف ومائتي سنة للمجمع المسكونيّ السابع" في **الفداء**، ٥ ٤٣-٤٤ (١٩٨٧)، ص ١٢٠-١٢٣.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

١-أ. نلحظ أنّ عبارة "المرنّمين بنشيد الانتصار" (επινικιον αδοντας) المردّدة في إرمس الأوذية الأولى وفي القطعة التالية له (επινικιον αδοντας)، مستوحاة من المقطع الكتابيّ الذي يتكلّم على عبور الشعب البحرَ الأحمر، وهو موضوع التسبحة الكتابيّة الأولى في صلاة السحر. كما لا نجد هذه الردّة حرفيًّا في سفر الخروج (**١٥؛ ١-١٩**)، ولكنّ العبارة تدلّ على التسبحة بأكملها التي رتّلها العبرانيّون بعد تحريرهم من أرض العبوديّة. يُعيدها هنا المسيحيّون الذين يشتركون في انتصار قيامة المسيح. أجل، يمثّل عبور البحر الأحمر انتصارًا على فرعون وعلى جيشه الذي غرق في مياهه.

ويفسّر قانونُ الفصح هذا الانتصار بطريقة نموذجيّة كأنّه الانتصار الأخير الذي حقّقه المسيح على الموت من خلال الحدث الفصحيّ. ويذكّرنا ذلك بعبارات مماثلة وردت في عظات بعض الآباء الأوائل. يقول القدّيس ميليتون أسقف سرديس: "إنّه هو (المسيح) الذي قلعنا من العبوديّة إلى الحرّيّة، ومن الظلمات إلى النور، ومن الموت إلى الحياة، ومن الاستبداد إلى مُلك أبديّ"[٤]. نعي جيّدًا أنّ تفسير مقطع سفر الخروج وعبور البحر من خلال المعموديّة والفصح المستوحى من كتابات الرسول بولس (**١ قور ١٠؛٢**) متوفّرٌ أيضًا عند العديد من آباء الكنيسة[٥].

إنطلاقًا من عبور البحر الأحمر، وهو الحدث الذي تكرّسه التسبحة السحريّة الأولى، يستعيد الإرمس موضوع العبور الذي بإمرة الربّ. غير أنّه لم يعد عبور الشعب اليهوديّ في البحر الأحمر ولكنّه أصبح العبور "من الموت على الحياة، ومن الأرض إلى السماء"، الذي قادنا فيه "المسيح إلهنا". يسمح المسيح بالتالي من خلال قيامته عبور البشريّة جمعاء[٦] إلى الحياة وإلى السماء. تستعمل همنوغرافيا الأعياد عمومًا عظائم الله التي يجترحها لخير الخليقة من خلال منظار الخلاص لتشير إلى تأثير هذه الأحداث في مصير الجنس البشريّ الأخير.

نعلم أنّ العبور حصل بإمرة "الله" وقيادته، بحسب ما جاء في النصّ الكتابيّ: "برحمتك هديت الشعب الذي فديته؛ بعزّتك أرشدته إلى مسكن قُدسك" (**خر ١٥؛ ١٣**). غير أنّ المفردات التي تستعملها الهمنوغرافيا تختلف نوعًا ما عن تلك المُستعملة في النصّ الكتابيّ. نجد بالتوالي المفردات: ωδηγησας (**خر ١٥؛ ١٣**)، εισαγαγων (**خر**

٤: Méliton de Sarde, *Sur la Pâque*, SC 123, Paris 1966, §68, pp.96-99؛ راجع نيقولا أنتيبا، "أحد الفصح في الهمنوغرافيا البيزنطيّة" في **المسرة**، ٨٣ (١٩٩٧)، ص٢٢٥-٢٤٠؛ كذلك للكاتب نفسه "درس لإيقونة القيامة بمناسبة ذكرى مرور ألف ومائتي سنة للمجمع المسكونيّ السابع" في **الفداء**، ٤٣-٤٤ (١٩٨٧)، ص ١٢٠-١٢٣.

٥: راجع الحاشية التفسيريّة في M.Harl, *La Bible d' Alexandrie* – Exode, 2, note a Ex 15, 1s .

٦: راجع الضمير المتّصل "نا" (ημας) في "أجازنا".

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

١٥؛ ١٧)، بينما يستعمل إرمس القانون فعلδιεβιβασεν. نلحظ أنّ هذا النوع من التغيير في المفردات يرد كثيرًا في الهمنوغرافيا البيزنطيّة، التي تستعيد بعض العبارات أو موضوعًا كتابيًّا وتستعمل مفردات مختلفة[٧].

نعتبر هذه الظاهرة علامة بيّنة لكيفيّة قبول كلمة الله في تقليد الكنيسة التي تجيب معلّمها وربّها بتبنّي رسالته باستعمالها تعابير مختلفة من دون التحوير في معناها. يبقى إذًا استعمال الموادّ الكتابيّة حرًّا، بالرغم من وجود قرابة موضوعيّة مهمّة بين التسبحة الكتابيّة والأوذية الشعريّة. وتبقى مفاهيم القيادة والتحرير والانتصار قريبةً من موضوع العبور إلى الخلاص. أضِفْ إلى ذلك عبارة "الفصح" (πασχα) المردّدة التي تشدّد على هذه القرابة.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ التسبحة الكتابيّة الثانية المأخوذة من سفر تثنية الاشتراع الحقيقيّ تُتلى فقط في أيّام الصوم الكبير. وجرت العادة بأن تُهمل هذه الأوذية في قوانين الأعياد نظرًا إلى طابع التوبة الذي يطغى عليها. لذا فلا نجد أوذيةً ثانية لقانون عيد الفصح المجيد.

١-ب. أمّا في الأوذيات الثالثة والرابعة والخامسة، فيستعيد القانون الفصحيّ المواضيع العامّة للتسابيح الكتابيّة المطابقة له ويستعمل ردّاتها. تتضمّن التسبحة الثالثة صلاة حنّة أمّ صموئيل النبيّ التي ترفعها لشكر الله بعد أن رزقها ابنًا **(١ مل ٢؛ ١-١٠)**. ففي الأوذية الثالثة، نجد الفعل "شدّد" (εστερεωθη **١ مل ٢؛ ١**) الذي يدلّ على "توطيد" الجماعة الكنسيّة وهو في صيغة "الجمع" في الإرمس، في حين يرتبط، وفي صيغة "المفرد" بتوطيد الخليقة في النشيد التالي.

نلحظ هنا أنّ المسيح نفسه يُحقّق فعل التوطيد. ويتكرّر هذا الموضوع في الأوذية الثالثة من القوانين الليتُرجيّة البيزنطيّة نظرًا إلى قرابته مع التسبحة الكتابيّة الثالثة. زد إلى ذلك أنّ هذا الفعل يصبح استشهادًا كتابيًّا للتسبحة وحدها في الردّة للفقرَتَين الأولى والثانية. أمّا التسبحة الرابعة فترتبط بنصّ مأخوذ من نبوءة حبقوق **(٣؛ ١-١٩)** الذي يرفع التسبيح للإله القادر على كلّ شيء. ويستعمل إرمس الأوذية الرابعة بدوره موضوع "المرصد" (φυλακη) الذي يتكلّم عليه النبيّ **(٢؛ ١)** وموضوع القدرة الإلهيّة (παντοδυναμος) في عبارة "على كلّ شيءٍ قدير" (δυναμις **٣؛ ١٩**)؛ وتتكرّر أيضًا هذه العبارة الأخيرة في النشيد الأخير من الأوذية. يُشير ذلك إلى أنّ المفردات المستعملة في القانون قريبةٌ من تلك المُستعمَلة في التسبحة.

[٧]: راجع ما قلناه في مقالنا عن "شفاء المخلّع والأعمى في زمن القيامة" الذي صدر في مجلّة **المشرق ٨٢** (١-٢٠٠٨) ص٢١٧-٢٥٠.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

ونلحظ كذلك استعمال اسم النبيّ حبقوق الذي ينتدبه الإرمس للقيام بدور المبشّر "بخلاص العالم" (σωτηρια τω κοσμω) مع أنّ النصّ الكتابيّ يتكلّم على الله الذي خرج "لخلاص شعبه" (εις σωτηριαν λαου σου ٣؛ ١٣). تتألّف التسبحة الخامسة من نصّ صلاة النبيّ أشعيا (٢٦؛ ٩-٢٠) حيث نجد موضوع "السهر" (ορθριζειν ٢٦؛ ٩) الذي يستشهد به مؤلّف القانون في إرمس الأوذية الخامسة بصيغة "الجمع".

١-ج. يصبح الرابط بين التسبحة والنشيد في إرمس الأوذية السادسة أقوى منه في الأوذيات السابقة، لأنّ رواية يونان الذي بقي في جوف الوحش البحريّ تُكوّن موضوع التسبحة السادسة (**يون ٢؛ ٣-١٠**). كما أنّها، على لسان ابن البشر، تسبق وتخبّر عن إقامة يسوع نفسه في "جوف الأرض ثلاثة أيّام وثلاث ليال" حسب ما جاء في **متّى ١٢؛ ٤٠**. وانطلاقًا من آية العهد الجديد، يُقارن الإرمس بين خروج يونان من بطن الحوت وخروج المسيح من القبر.

غير أنّ المسيح في **متّى ١٢؛ ٤٠** لا يتطرّق إلى الكلام على خروج من جوف الوحش البحريّ أو من القبر، بل يتكلّم على إقامة ابن البشر فقط. نجدنا إذًا أمام تطوير المقارنة الكتابيّة التي جاءت في الإنجيل وتوسيعها، بينما تُذكّر الهمنوغرافيا الفصحيّةُ بصراحةٍ بالحدَثَين. نُضيف إلى ذلك أنّ الإرمس لا يتكلّم على الإقامة البسيطة في القبر وحسب، بل يُشدِّد على نزول المسيح "إلى أقصى أسافل الأرض". يُكوِّن ذلك أيضًا توسيعًا بالنسبة إلى الآية المتّاويّة. تجدر الإشارة هنا إلى أنّ إنجيل نيقودمس المُحرَّف يتكلّم على موضوع نزول المسيح إلى الجحيم، كما تتوسّع فيه الإيقونوغرافيّة البيزنطيّة.

وإذا عدنا إلى نصّ القانون، تتّخذ آية يونان، حسب **متّى ١٢؛ ٤٠**، تفسيرًا مثاليًّا (Typologique) لتسبق وتدلّ على حدث مهمّ من العهد الجديد، أعني به القيامة. لقد أعطى يسوع نفسُه، وهو الأوّل، المثالَ مع آية يونان (**متى ١٢؛ ٣٩**) على تفسير مثاليّ للعهد القديم الذي يكتمل في العهد الجديد.

إنّها الطريقةُ الأكثر استعمالاً في تفاسير الآباء القدّيسين الكتابيّة، وقد أخذها الهمنوغرافيّون عنهم متبنّين أفكارهم. ويظهر لنا أنّ هذا التفسير قد أخذ طريقه ضمن التقليد الآبائيّ القديم الذي يعود إلى القدّيس إيريناوس أسقف ليون الفرنسيّة، والذي يقولُ إنّ "آية يونان" تسبق وتدلّ على قيامة المسيح[٨].

١-د. يُذكّر إرمس الأوذية السابعة بطريقة سريعة الرواية الكتابيّة المتعلّقة برمي "الفتيان الثلاثة في الأتّون" بأمر الملك نبوكدنصر. يقول النصّ الكتابيّ إنّ أحد هؤلاء الفتية رفع الصلاة إلى الربّ الذي أنقذهم من نار الأتون. وهذا هو موضوع التسبحة

---

[٨]: راجع M.Harl, *La Bible d' Alexandrie –Prophètes*, 23,4-9, Paris 1999, pp. 130-131 .

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

الكتابيّة (**دا ٣؛ ٢٦-٥٦** حسب الترجمة السبعينيّة). أضفْ إلى ذلك أنّ جميع التوسّعات (Développements) الأخرى مستوحاة من مواضيع كتابيّة غير تلك الموجودة في التسبحة السحريّة.

أجل، تبدأ الأوذية السابعة بتذكير صريح برواية التسبحة الكتابيّة (**دا ٣**) ويعرضُ علينا الإرمس تأويلاً مسيحانيًّا للنصّ الكتابيّ بقوله إنّ "الذي أنقذ الفتية من الأتون" هو الذي "تألّم كمائت" وأعاد بالتالي للمائتين "عدم الفساد". ونلحظ أيضًا أنّ ردّة التسبحة: "مباركٌ أنت أيّها الربّ إلهُ آبائنا". نجد هذه الطريقة الحرّة التي يتمتّع بها الهمنوغراف في كتابة القطع الشعريّة كثيرًا في قوانين بعض الأعياد الكبيرة وخصوصًا التي تتطرّق إلى رواية **الفتيان الثلاثة في الأتون**[٩]. تروي التسبحتان السابعة والثامنة الحدث نفسه، إذ تُكمّل التسبحة الثامنة آيات السابعة (**دا ٣؛ ٥٧-٨٨**).

نشير هنا، في صدد الأوذية الثامنة، إلى أنّ ردّة التسبحة الكتابيّة وحدها (**دا ٣؛ ٥٧**) مستعملةٌ في نهاية كلّ من نشائد الأوذية: "نبارك (نسبّح) إلى الدهور".

١-ه. تدعو الأوذية التاسعة والدة الإله إلى الفرح والابتهاج بقيامة "الذي ولدته" (του τοκου σου). يساعدنا هذا الموضوع في رؤية التقارب مع الجزء الأوّل من التسبحة التاسعة الكتابيّة السحريّة، التي تنطوي على ما قالته مريم لدى زيارة نسيبتها أليصابات (**لو ١؛ ٤٦-٥٥**).

أجل، يقول لنا النصّ الكتابيّ إنّ روح مريم "ابتهجت" (ηγαλλιασε **آية ٤٦**): كذلك، يحصل هذا التقارب الفكريّ مع رواية البشارة الإنجيليّة حيث يدعو الملاك جبرائيل العذراء إلى الفرح والابتهاج (χαιρε **لو ١؛ ٢٨**). نلحظ جيّدًا أنّ الفعل اليونانيّ يختلف في النصّين غير أنّ فكرة "الفرح" تبقى هي نفسها في الحالات الثلاث.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ العادة في صلاة السحر البيزنطيّة، جمعت ما نسمّيه اليوم بالتسبحة التاسعة، نصّين مأخوذين من إنجيل لوقا. يُشير الأوّل إلى نشيد والدة الإله لدى زيارة نسيبتها أليصابات (**لو ١؛ ٤٦-٥٥** Magnificat/Μεγαλυνει) والثاني إلى النشيد الذي تفوّه به النبيّ زكريّا بعد مولد يوحنّا المعمدان (**لو ١؛ ٦٨-٧٩** Benedictus/Ευλογητος). نلحظ أنّ الأوذية التاسعة في أكثريّة قوانين السحر البيزنطيّة مكرّسة لوالدة الإله وللتجسّد. وفي أوذية القانون الفصحيّ التاسعة، يتحوّل "فرح" (χαιρε) بشارة التجسّد إلى بشارة الفائقة القداسة بقيامة ولدها[١٠].

---

[٩]: راجع على سبيل المثال الأوذيتَين السابعة والثامنة للقانون الأوّل لسحر عيد الميلاد، في **كتاب**، ٢/١، جونيه، لبنان ١٩٩٨، ص١٥٩٧-١٥٩٩.

[١٠]: راجع نيقولا أنتيبا، "ليتورجيا الأسبوع العظيم المقدّس – تاريخٌ ماضٍ وحاضرٌ معًا" **المشرق ٨١** (١، ٢٠٠٧)، ص١٤٧-١٨٣.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

لاحظنا أنّ القانون الفصحيّ يذكر موضوع التسبحة الكتابيّة العامّ أو يستعيد الردّة. وأشرنا كذلك إلى أنّ مؤلّف الأناشيد يتحرّر في بعض الأوذيات من معنى التسبحة الحرفيّ. كما أنّنا وجدنا أنّ الرباط مع الحدث المحتفل به، كما في بعض قوانين الأعياد الكبرى، لم يكن واضحًا دائمًا. وتجدر الإشارة أيضًا إلى أنّ التسابيح الكتابيّة لا تُرنّم في ذلك اليوم الكبير، حسب العادة المألوفة حاليًّا، مع العلم بأنّ ناظم القانون الفصحيّ يعرفها جيّدًا (هو شخصيًّا) ويفترض معرفتها لدى المؤمنين الذين يشتركون في الاحتفال[١١].

تُمثّل التسابيح الكتابيّة السحريّة ينبوعًا مهمًّا استوحى منه كاتب القانون الفصحيّ في نظمه الأوذيات، غير أنّها ليست مرجعه الوحيد. ونعلم جيّدًا أنّ التقليد الليتُرجيّ، وبنوع خاصّ هذا القانون بالذات، يُغدق على هذه التسابيح السحريّة نظرةً مسيحانيّة لا يلحظها القارئ للوهلة الأولى.

أضِفْ إلى ذلك أنّ هذه النظرة لا تظهر إذا أتت قراءة القانون بعيدةً عن إطار استعمالها الليتُرجيّ. أجل، ينخرط هذا القانون في إطار التأويل (Exégèse) الليتُرجيّ البيزنطيّ الذي يعرضُ تفسيرًا (Interprétation) مثاليًّا (Typologique) لمواضيع العهد القديم الكتابيّة التي نجدها في الأناشيد. ونعرف أنّ مؤلّفي الأناشيد والقوانين السحريّة للأعياد يجهدون ليجدوا الرباط بين المواضيع التي تتكلّم عليها التسابيح الكتابيّة، والمسيح. وتجدر الإشارة إلى أنّ المؤمنين المشاركين عمومًا في صلاة السحر يعرفون هذه التسابيح بفعل استعمالها اليوميّ أو على الأقلّ لأنّها أوحت هذه المواضيع.

سبق وأشرنا إلى أنّ مؤلّف ضوابط النغم استقى من الكتاب المقدّس التسابيح التسعة ووضعها في إطار ليتُرجيّ يُحاكي موضوعَ العيد. غير أنّه لم يتوقّف عند هذا الحدّ، بل اختار بعض المواضيع الأخرى الكتابيّة المتّصلة بالعيد وتوسّع فيها لينظّم قانون العيد. سنتطرّق في الفقرة التالية إلى بعض هذه العناصر الكتابيّة.

٢- بعض العناصر الكتابيّة الأخرى

٢-أ. موضوع "الشراب" المثاليّ (**خر ١٧؛ ٦/عد ٢٠؛ ٨-١١/١ قور ١٠؛ ١-٤**): يروي لنا سفر الخروج أنّ الشعب تذمّر من موسى بسبب عدم وجود الماء في الصحراء. فسأل موسى الربّ الذي أجابه: "... ها أنا قائمٌ أمامكَ هناك على الصخرة، فتضرب الصخرة، فإنّه يخرج منها ماء فيشرب الشعب" (**خر ١٧؛ ٦**). إنطلاقًا من هذه الرواية الكتابيّة، تقدّم لنا الهمنوغرافيا الفصحيّة تفسيرًا مسيحانيًّا ومثاليًّا.

---

[١١]: راجع عادة ترنيم القانون الفصحيّ مع التسابيح الكتابيّة يوم العيد حسب بعض المراجع الليتُرجيّة في G. BRETONNIERE, *The Historical Development of the Easter Vigil and Related Services in Greek Church*, OCA 193, Rome 1972, pp. 202-210 .

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

يسبق هذا الحدث ويصوّر المسيح حسب التفسير الذي يعطيه القدّيس بولس وقد استوحاه بدوره من تقليد للربانيّين: "إنّ آباءنا... كلّهم شربوا شرابًا روحيًّا واحدًا، فقد كانوا يشربون من صخرة روحيّة تتبعهم، وهذه الصخرة هي المسيح" (**١ قور ١٠: ١-٤**).

نقرأ في إرمس الأوذية الثالثة أنّ المسيح الخارج من القبر يصبح "ينبوع عدم الفساد"، كما أنّ "الشراب الجديد" هو المسيح نفسه الذي يقدّم ذاته ليروي عطش البشر. فالعطش الفيزيولوجيّ قد رُوي قديمًا بطريقة معجزة، وكان صورةً لعطش أعمق، هو العطش لله. فالمسيح وحده قادرٌ بقيامته وانتصاره على الموت على إخماد سعير العطش الروحيّ. يسمح لنا التوازي الحاصل بين الشراب الجديد والمسيح – الصخرة الذي أوحاه العهد القديم (**خر ١٧؛ ٦**) والرسول بولس (**١ قور ١٠؛ ٤**)، بأن نرى إشارة خافتة إلى سرّ الإفخارستيا، كما سنرى لاحقًا.

٢-ب. رقصة داود أمام تابوت العهد: نقرأ في الكتاب المقدّس: "وكان داود يرقص ويدور على نفسه بكلّ قوّته أمام الربّ...". يفسّر لنا كاتب القانون الفصحيّ علامة هذا الفرح من خلال نشيد الأوذية الرابعة ليدلّل عليها بأنّها فاتحة مسرّة القيامة. نعرف أنّ تابوت العهد كان المكان الوحيد الذي يُشير إلى الحضور الإلهيّ على الأرض قبل التجسّد؛ وقد دفع هذا الحضور بالتالي داودَ إلى الرقص وإلى الطرب.

يُشدّد النشيد على أنّ التابوت كان "ظلًّا"، أي سابقًا للأمور الآتية. وتُذكّرنا مفردة "الظلّ" (σκια) بالتسبحة الكتابيّة الرابعة المأخوذة من نبوءة حبقوق (**٣:٣**)، كما رأينا سابقًا، والتي استعملها الآباء للدلالة على مراجع العهد القديم المرتبطة بالجديد.

لقد وضع الهمنوغراف رقصة داود، بطريقة متوازية، مقابل فرح شعب الله المقدّس، أي الكنيسة، في العبارة " إذ قد أبصرنا عبور (أم تمام أو اكتمال) تلك الصور (أو الرموز)". ويشرح لنا النشيد بوضوح توازي العهدَين القديم والجديد، واكتمال الأوّل بالثاني. فكلمة "عبور" التي تعرّب المفردة اليونانيّة (εκβασις) تدلّ على "اكتمال" نبوءةٍ ما أو تحقيقها" (**حك ٢؛ ١٧** حسب النصّ اليونانيّ). أجل، أعطى "ظلّ" التابوت المكانَ لتحقيق القيامة، وهكذا حصل السرور المتأتّي منهما. كما يعرضُ علينا النشيد الأخير في الأوذية الثالثة نموذجًا لتحقيق هذه النبوءة، ويشرح لنا في الوقت نفسه بصورة شعريّة الطريقة التفسيريّة التي يستعملها الآباء في شرح الأحداث المثاليّ.

٢-ج. ذبيحة الحمل: يقارن الكاتب الهمنوغرافيّ في الأوذيتَين الرابعة والسادسة بين ذبيحة الحمل الفصحيّ لدى خروج اليهود من أرض مصر (**خر ١٢**)، وبين ذبيحة المسيح. فرضت الشريعة الأولى على الشعب القديم الاحتفال بالفصح بتقديم ذبيحة "حمل

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

تامٌّ ذَكَر حوليّ" (**خر ١٢؛ ٥**). يستعيد القانون الفصحيّ الموادّ الكتابيّة المتعلّقة "بالحمل" (αμνος) ليُصبح حملاً طاهرًا ومنزّهًا عن الدنس ويدلّ على المخلّص، وهو الإله ومثالُ الإنسان. نلحظ أيضًا المقارنة بين الحمل الذبيح والمسيح "حمل الله" (**يو ١؛ ٣٦**).

يُشير إذًا نشيد الأوذية الرابعة إلى هذه الصفات من دون أن يعلّق عليها بتفسيراته الكثيرة إذ وجدها في عظات الآباء، كما سنرى لاحقًا. كذلك، يطبّق ناظم الأناشيد موضوع تكريس الذَكَر البكر من الإنسان أو الحيوان حسب فريضة العهد القديم (**خر ١٣؛ ١-٢ و١٢**)، على المسيح بصفته المولود الذكر (αρσην)، والبكر، وهو الذي "يفتح" (διανοιγω) المستودع البتوليّ.

ونقرأ في النصّ الكتابيّ ما فرضه الله على موسى: "قدّس لي كلَّ بكر، كلَّ فاتح رحم من بني إسرائيل، من الناس والبهائم، إنّه لي" (**خر ١٣؛ ٢**). نلحظ أنّ نصّ القانون بالعربيّة يختلف قليلاً عن اليونانيّة إذ يستعمل كلمة "الصائن" بدل "الفاتح" وهي العبارة اليونانيّة المستعملة في نشيد الأوذية. تجدر الإشارة هنا أيضًا إلى أنّ الموضوع نفسه يعود في قراءة العهد القديم الأولى لغروب عيد دخول المسيح إلى الهيكل في ٢ شباط والتي تؤلّف مزيجًا من مراجع كتابيّة عديدة (**خر ١٢؛ ١٣/٥١؛ ١-٣ و١٠-١٢ و١٤-٢٢/١٦؛ ٢٩/أح ١٢؛ ٣-٤ و٦ و٨/عد ٨؛ ١٦-١٧**).

إنطلاقًا من فكرة الحمل "المذبوح" حسب خر **١٢: ٦**، يُشير القانون الفصحيّ إلى ذبيحة المسيح الطوعيّة. يُقدِّم المسيح نفسَه ليكون ذبيحة؛ كما يُقرّب ذاته بكلّ إرادته وحرّيّته، وهذا ما يُعبِّر عنه الظرفُ الحاليّ باليونانيّة (εκουσιως)[١٢]. يُذكّرنا ذلك بالرسالة إلى العبرانيّين التي تتمحور على موضوع الكاهن الأعظم الذي يُقرّب نفسه ذبيحة عن شعبه. "... فما أولى دمَ المسيح، الذي قرّب نفسه إلى الله بروح أزليّ قربانًا لا عيب فيه..." (**عب ٩؛ ١٤/٧؛ ٢٧**).

يظهر هذا المسيح مثل الكاهن والذبيحة معًا، لأنّ إرادة المسيح البشريّة تتبع بكلّ حرّيّة وبدون أي إكراه، إرادتَه الإلهيّة، حسب تعاليم المجمع المسكونيّ السادس القسطنطينيّ (العام ٦٨١). تعود أيضًا هاتان الصفتان في صلاة النشيد الشيروبيمي في ليتورجيّة القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم، حيث يقول الكاهن: "... فأنت هو المقرِّب والمقرَّب، والقابل والموزَّع...".

أضِفْ إلى ذلك ما تُوحيه الفكرة الواردة في الأوذية السادسة بما أنّ (المسيح) إلهٌ أصبح قربانًا غير قابل للذبح (αθυτος ιερειον ως Θεος): إنّه الطابع الإلهيّ لشخص المسيح

[١٢]: **أوذية**؛ نشيد ٢ و**أوذية ٦**، نشيد ٢.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

الذي يمنحه صفة "غير ذبيح" في هذا النشيد الذي يُكرّر فكرة تقديمه كقربان[١٣]. ونجد في الإطار نفسه عبارة "فصح الرب" حسب نصّ (**خر ١٢؛ ١١**) وتفسيرها في (**١ قور ٥؛ ٧**) التي يُلقّب بها المسيح: "طهّروا أنفسكم من الخميرة القديمة لتكونوا عجينًا جديدًا لأنّكم فطير. فقد ذُبح حملُ فصحنا، وهو المسيح" (**١ قور ٥؛ ٧**). لا ننسى الأناشيد الكثيرة التي تستعمل عبارة "فصح" (πασχα) في همنوغرافيا الفصح وخصوصًا في القطع الملقّبة "بالفصحيّات"[١٤].

تجد ذبائحُ العهد القديم كافّةً تتميمَها في المسيح لأنّ كمال الذبيحة يأتي من كمال الإله – الإنسان، الذي اتّخذ الطبيعة البشريّة، "وامتُحن في كلّ شيء مثلنا ما عدا الخطيئة (**عب ٤؛ ١٥**). هذا ما دفع الهمنوغراف إلى استعمال عبارة "كامل" (τελειος) في الأوذية الرابعة، ليُشدّد على الفكرة بأنّ ذبيحة المسيح الوحيدة تُكمّل أيضًا ذبائح العهد القديم العديدة وغير الكاملة.

وهذا ما ذكّر به كاتب الرسالة إلى العبرانيّين: "ولمّا كانت الشريعة تشتمل على ظلّ الخيرات المستقبلة، لا على تجسيد الحقائق نفسه، فهي عاجزةٌ أبد الدهور، بتلك الذبائح التي تُقرَّب كلّ سنة على مرّ الدهور، أن تجعل الذين يتقرّبون بها كاملين. ولولا ذلك لكُفّ عن تقريبها، لأنّ الذين يقومون بشعائر العبادة، إذا تمّت لهم الطهارة مرّةً واحدةً، لم يبقَ في ضميرهم شيء من الخطيئة" (**عب ١٠؛ ١-٢**).

يتحرّى القانون الفصحيّ بدقّة آيات سفر الخروج المتعلّقة بميزات الحمل الذبيح. يذكّر المرنّم أيضًا نتيجة ذبيحة المسيح الهامّة وهدفَها الرفيع، وهي خلاص الجنس البشريّ. ويُشدّد على نظرة الأحداث الكتابيّة المسيحانيّة الخلاصيّة. فنجده على سبيل المثال يستعمل عبارة "مخلّص" (σωτηρ) ليُدلّل على صفة المسيح الذبيح[١٥].

نعرف أنّ مراحل العهد القديم جميعًا تُبشّر وتسبق وتصوّر عمل المسيح منذ مجيئه على الأرض وتجسّده حتّى ذبيحته على الصليب وقيامته. وتُظهر لنا الهمنوغرافيا الفصحيّة بدورها، أنّ القيامة هي نقطة توارد جميع النبوءات وفرائض شريعة العهد القديم، كما هي نقطة تلاقي جميع أحداث التاريخ المقدّس.

وهذا ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأنّ معطيات العهد القديم ووقوع هذه الأحداث تهدف إلى تحضير الشعب المختار، بطريقة تعليميّة، لأن يفهم ويتقبّل مجيء المسيح على الأرض وقيامته وخلاص البشريّة، وتحريرها من الموت وبالتالي تقديسها واتّحادها بالله.

---

[١٣]: **أوذية ٦**، نشيد "المجد...".

[١٤]: **القطعة الأولى والرابعة، ونسيد الإرسال...** .

[١٥]: **أوذية ٦**، نشيد ٢.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

يستطيع المؤمن تفهّم هذه الحقائق الأساسيّة واستيعابها بطريقة جليّة وأكثر وضوحًا، عندما تُشرح من خلال الأعمال وليس من خلال سماع الأقوال. لربّما هذا هو السبب الذي دفع المرنّم إلى التشديد في القانون الفصحيّ على تفاصيل ذبيحة الحمل ليسبق ويصوّر عمل المسيح الخلاصيّ.

٢-د. ذكر بعض الأشخاص من الكتاب المقدّس: يذكر القانون الفصحيّ أسماء أشخاص جاء ذكرهم في العهد القديم أمثال حبقّوق، داود، يونان. إختارهم المرنّم بين هؤلاء الذين يُمثّلون الأنبياء وأصفياء الله، وبالتالي جميع الذين كانوا ينتظرون مجيء المسيح.

يُمثّل آدمُ البشريّة بأكملها وفقًا للصفة التي تتعلّق باسمه (παγγενητον Αδαμ)[١٦]. فجامعيّة الذرّيّة البشريّة التي جمعها آدم في شخصه تؤلّف موضوعًا محبّبًا عند الآباء. يُشدّد هؤلاء كثيرًا على هذا الموضوع في مواعظهم، وقد استوحوه من المقارنة التي وضعها بولس الرسول بين آدم والمسيح، آدم الجديد: "وكما يموت جميعُ الناس في آدم، فكذلك سيحيون جميعًا في المسيح" (**١ قور ١٥؛ ٢٢**).

وقد أطلعني شفهيًّا الأب Placide Deseille أنّ الأرشمندريت صفروني (+١٩٩٣) من الجبل المقدّس، وانطلاقًا من تعاليم معلّمه المتوحّد سلوانس الأثوسيّ (+١٩٣٨)، قد توسّع في شرح فكرة "آدم الكليّ" (Adam total) التي تشمل البشر جميعًا. أصبحت صلاة سلوانس التي كان يرفعها لله من أجل البشر والخليقة كلّها "ذبيحة حياته"؛ فقد شاء الله أن يخلّص البشر جميعًا بالمسيح القائم من بين الأموات.

كان استشهاد كاتب القانون الفصحيّ بهؤلاء الأشخاص الكتابيّين عنصرًا مهمًّا جامعًا يُفسِحُ المجال أمام أعضاء الكنيسة كلّهم المؤمنين والمشتركين في الاحتفال لأن يجدوا أنفسهم قريبين منهم أو أن يتشبّهوا بهم في علاقتهم بالمخلّص. وهكذا نجد أنّ الهنوغرافيا تساعد في اكتشاف المعنى المسيحانيّ في العهد القديم. أجل، فقد اختار ناظم القانون بعض الأشخاص من التسابيح الكتابيّة، كما رأينا، وآخرين قد اعتبرهم هو نفسه ممثّلين عن البشريّة.

لا يعني ذلك إنّهما يدفعان المؤمن إلى التحريّ عن أشخاص آخرين يساعدونه في التمعُّن في سرّ الخلاص الذي كان ينتظره الشعب اليهوديّ. كما أنّه من الطبيعيّ لرؤية ما قام به المسيح، أن يتحرّى المؤمن عن سيرة القدّيسين، أولئك الأشخاص الذين طبّقوا تعليم العقيدة المسيحيّة. قد يكون هؤلاء في مستوى أعلى عن العالم، ولكنّهم يبقون من العالم! نسمع هنا قول الرسول بطرس الذي يُعيد إلى الأذهان عبارة سفر الأحبار التي تدعو الجميع إلى القداسة: "كما أنّ الذي دعاكم هو قدّوس، فكذلك كونوا أنتم قدّيسين في

[١٦]: **أوذية ٦**، نشيد ٢.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

سيرتكم كلّها، لأنّه مكتوب: كونوا قدّيسين، لأنّي أنا قدّوس" (**١ بط ١؛ ١٥-١٦؛ راجع أح ١٩؛ ٢**).

وقد نستخلص من هذا كلّه، أنّ ناظم القانون كان له هدف معيّن في اختيار هؤلاء الأشخاص الكتابيّين! لم يكتفِ المرنّم بالكلام على أشخاص ينتمون إلى العهد القديم، بل انتقى أشخاصًا لهم دورٌ مهمّ في حمل بشارة القيامة.

٢-٥. زيارة النسوة القبرَ: يذكر إرمس الأوذية الخامسة مجيء النسوة إلى القبر قبل الفجر، حاملات طيوبًا، كما ورد في نهاية الأناجيل. ويضع ناظم القانون مجيء هؤلاء في موازاةٍ مع سهر المسيحيّين الذين يأتون، مرنّمين، لملاقاة الربّ القائم من بين الأموات قبل انبثاق النهار. كذلك تدعو العبارات الليتُرجيّة أعضاء الجماعة المسيحيّة إلى أن يتصرّفوا تصرّف أشخاص العهد الجديد تجاه المسيح الناهض من الأموات.

تُذكّرنا، من جهة، عبارة "لنتقدّمْ، حاملين المصابيح" بمَثَل العذارى العشر اللواتي أتين للقاء العريس (**راجع متى ٢٥؛ ١-١٣**). يلفت هذا المَثَل الانتباه إلى واجب الاستعداد والسهر عند تأخّر الربّ. يرتبط هذا الموضوع بفكرة الكسل والتواني، إذ يُثقّل الكسلُ كاهلَ الإنسان فيدفعه إلى الاهتمام بأمور طفيفة وجانبيّة تُلهيه عن التفكير في الأمور الأوّليّة المهمّة. أجل، يُؤهّلنا هذا الجهد المبذول والسهر لأن نكون مستعدّين للدخول مع الربّ إلى وليمة العرس. فالنفس "العاقلة" هي التي تعرف معنى السهر وطريقة الانتظار، وهي التي تتوق إلى سماع صوت الربّ: "أدخل أيّها العبد إلى فرح ربّك". إنّها مستعدّة الآن لتدخل مع المسيح القائم إلى خدره السماويّ، وبالتالي تشترك معه في مجده وفي انتصاره[١٧].

ويلقّب، من جهة ثانية، نشيد آخر من الأوذية السابعة، تلك النسوة بصفة "الإلهيّات العقول" (θεοφρονες). أجل، لا تعرف الأناجيل هذه الصفة للنسوة، ولكنّ ناظم القانون أراد أن يُشير إلى حقيقة القيامة النبويّة قبل أن يختبرها الناس. وهكذا فالهمنوغرافيا تقدّم في كثير من الأحيان صورةً متناقضة لتعبّر عن فكرة أخرى بيّنة. يُناقِضُ الشعور الإنسانيّ المبنيّ على الخوف عند النسوة الآتيات ليُطيّبن جسد المسيح، الفرحَ الروحيّ المُسبق والمطابق للإرادة الإلهيّة.

ألمْ يقل ملاك الربّ لمريم المجدليّة ومريم الأخرى وهما في حيرة أمام القبر: "لا تخافا أنتما" (**متى ٢٨؛ ٥**)! تدلّ عبارة هذه "الحكمة الإلهيّة" أو هذا "الفكر الإلهيّ"، حسب رأينا، على أنّ الله هو الذي يُسيّر الأحداث، وهو الذي أوحى إلى النسوة بالذهاب إلى

---

[١٧]: **أوذية ٥**، نشيد ٢. راجع نيقولا أنتيبا "هوذا العروس يأتي" في **المسرّة**، ٨٦ (٢٠٠٠)، ص٢٥٤-٢٧١؛ كذلك للكاتب نفسه "ليتورجيا الأسبوع العظيم المقدّس ..." في **المشرق ٨١** (١، ٢٠٠٧)، ص١٥٢-١٥٤.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

القبر بُغية تطييب الجسد وتحضيره للدفن. غير أنّ الواقع يختلف عن ذلك، إذ إنّ الله أراد أنْ تختبر النسوة القيامة قبل الآخرين، وأن يشركهنّ بتمهّل بيقين الخلاص الحقيقيّ الذي يمنحه الجنسَ البشريّ[١٨].

٢-و. قيامة المسيح ووالدة الإله: جعلَ ناظم القانون الفصحيّ ولادةَ يسوع المسيح البتوليّة والقيامة[١٩] متوازيَيْن. نعلم أنّ عبور القائم من بين الأموات قد حصل بتدَحرُج حجر القبر المختوم، كما ورد في الإنجيل: "... فذهبوا وحفظوا القبر، فختموا الحجرَ وأقاموا عليه حرّاسًا" (**متى ٢٧؛ ٦٦**). ونعلم أيضًا من البشير نفسه أنّ ملاك الربّ قد أزاحَ الحجر عن باب القبر ليُظهر هذا الأخيرَ للنسوة فارغًا (**متى ٢٨؛ ٢**). في النشيد الأوّل من الأوذية السادسة، وبطريقة شعريّة بارعة، يُقارن الهمنوغراف "أختام الرمس السالمة" ببتوليّة والدة الإله التي صانها المسيح الربّ بعد ولادته.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الكثير من أناشيد أيّام الآحاد البيزنطيّة تتطرّق إلى إيحاءات مثاليّة وتضع "الولادة" و"القيامة" جنبًا إلى جنب. نعطي على سبيل المثال صورة "العليّقة المتوقّدة غير المحترقة" والولادة البتوليّة[٢٠]، كذلك صورة "البحر الأحمر الذي لبث غير مسلوك بعد اجتياز" العبرانيّين[٢١]. نلحظ بالتالي القرابة بين القانون الفصحيّ وهمنوغرافيا القيامة التي تحتفل بها الكنيسة في كلّ يوم أحد[٢٢].

يُفسّر ناظم القانون الفصحيّ سلام الملاك الذي وجّهه إلى مريم يوم البشارة بقوله: "إفرحي" (**لو ١؛ ٢٨**) كأنّه السلام الذي يُبشّر بالقيامة[٢٣]. يقوم الرابط بين البشارة والقيامة على فخّ البشرى السارّة التي حملها جبرائيل. يعود هذا الموضوع في ردّات الأوذية التاسعة التي تسبق القطع في القانون الفصحيّ، والتي لا تُؤلّف جزءًا من القانون نفسه: "عظّمي (μεγαλυνον) يا نفسي المسيح الواهب الحياة، ... عظّمي يا نفسي من تألّم طوعًا، ... إفرحي (χαιρε) أيّتها البتول إفرحي، يا مباركة، إفرحي يا ممجّدة...". نُشير هنا إلى أنّ مقطع لوقا الإنجيليّ الذي يتكلّم على البشارة لا يتطرّق لا إلى الخلاص ولا إلى القيامة، بل إلى مُلك ابن العليّ الذي يدوم إلى الأبد: "سيكون عظيمًا وابنَ العليّ

---

[١٨]: أضِفْ إلى ذلك الإشارات العديدة، خارج القانون بحدّ ذاته، إلى زيارة القبر أو ترائيات القائم من بين الأموات. على سبيل المثال القنداق "... وللنسوة حاملات الطيب قلت افرحن ..."؛ كذلك البيت والفصحيّات.

[١٩]: **أوذية ٦**، نشيد ١.

[٢٠]: لحن ٢، السبت مساء، **مزامير الغروب**، قطعة السيّدة.

[٢١]: لحن ٥، السبت مساء، **مزامير الغروب**، قطعة السيّدة.

[٢٢]: راجع نيقولا أنتيبا، "الفرض الإلهيّ، مدرسة صلاة"، في **مجموع وأبحاث ومقالات مهداة إلى المطران ناوفيطوس أدلبي**، إعداد الأبوَيْن ناجي أدلبي وبيير مصري، بيروت ٢٠٠٥، ص٦-١٠.

[٢٣]: **أوذية ٩**، إرمس.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

يُدعى، ويوليه الربُّ الإله عرشَ أبيه داود، ويملك على بيت يعقوب أبد الدهر، ولن يكونَ لمُلكه نهاية" (**لو ١؛ ٣٢-٣٣**).

كما نجد في الأوذية التاسعة من القانون الفصحيّ أنّ بشارة القيامة موجّهة بنوع صريح إلى والدة الإله. ويُفسّر تقليد آبائيّ روايات زيارة النسوة القبرَ مع والدة الإله، مستندًا إلى عبارة "مريم الأخرى" (**متى ٢٨؛ ١**)، التي كانت هي أيضًا الأولى في معرفة قيامة ابنها والتي بشّرها الملاك بالقيامة وإنباء التلاميذ بالبشرى السارّة[٢٤]. وهكذا يعتبر الهمنوغراف أنّ القيامة هي هدف البشارة.

٢-ز. إفخارستيا واسكتولوجيا: يذكّرنا النشيد الأوّل من الأوذية الثامنة في عبارة "عصير الكرمة الجديد" الذي يشرب في الملكوت بما ورد في إنجيل متى: "أقول لكم: لن أشربَ بعد الآن من عصير الكرمة هذا حتّى ذلك اليوم الذي فيه أشربه معكم جديدًا في ملكوت أبي" (**٢٦؛ ٢٩**). يضع ناظم القانون الفرح الإلهيّ، وبهجة يوم القيامة المميّز (ευσημος) جنبًا إلى جنب، والاشتراك في ملكوت المسيح، ويربطهم بالاشتراك الإفخارستيّ، الذي يصبح اشتراكًا فعليًّا بالقائم من بين الأموات. وتشدّد هذه القطعة الليتُرجيّة على الاشتراك بالفرح الحاليّ الظاهر يوم القيامة، والذي أيضًا يبقى فرحًا أبديًّا. يشير ذلك إلى أنّ المؤمن المشترك بالإفخارستيا يحظى بانتصار المسيح القائم من بين الأموات الذي يساعده في تخطّي كلّ المحن.

تقدّم لنا الهمنوغرافيا سابقةً إسكتولوجيّة إذ إنّها لا تتكلّم على تذكير بسيط للملكوت الآتي، بل إنّها تتطرّق إلى هذا الملكوت الحاصل الآن على الأرض، والذي افتتحه المسيح بواسطة حدث قيامته. يصبح عصير الكرمة، إذًا، في الملكوت، الاتّحاد بالله من خلال الاشتراك الإفخارستيّ. فما قاله المسيح في الآية المتّاوية السابقة لا يتطرّق إلى قيامته الخاصّة فحسب، بل وفي الوقت نفسه إلى قيامة البشر أجمعين.

هذا ما تُشير إليه عبارة "معكم" (μεθ'υμων) في الآية الإنجيليّة. فقيامة البشر قد تحقّقت الآن مسبقًا في الإفخارستيا وليس بمجرّد تذكير بسيط. فالمسيح، منذ قيامته، موجود في ملكوت أبيه، ويُدخل معه منذ الآن جميع المشتركين في الإفخارستيّا. ويعود المُنشد ويقول: "أنعم علينا، أن نشاركك أكمل مشاركة في نهار ملكك الذي لا مساء له"[٢٥].

---

[٢٤]: *Le Mystère de Pâques*, textes choisis et présentés par A. HAMMAN et F. QHEREJAULMES, Paris 1963, PP. 165-166.

[٢٥]: **أوذية ٩**، نشيد ٢.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

يعود موضوع حضور المسيح في وسط تلاميذه في الأوذية التاسعة انطلاقًا من الآية المتّاوية: "... وهاءَنذا معكم (μεθ’υμων) طوال الأيّام إلى نهاية العالم" (٢٨؛ ٢٠)[٢٦]. يرتبط حضور المسيح بالوعد الذي يصفه الهمنوغراف بأنّه وعد صادق "غير كاذب" (αψευδως). ويُضيفُ المرنّم أنّ الكلام الذي تفوّه به المسيح لتلاميذه يبقى للمؤمن "مرسى رجاء" (αγκυραν ελπιδος). أجل، عمّ الفرحُ قلوب التلاميذ حين سمعوا صوت المسيح يُطمئنهم بالبقاء معهم.

وهذا ما دعا المرنّم إلى أن يختم النشيد بفعل (αγαλλομεθα) الذي يُعلن عن الابتهاج والسرور، مشيرًا بذلك إلى حقيقة حضور المسيح في وسط البشر. أضِفْ إلى ذلك أنّ الصوت (φωνη) أو الكلمة التي قالها المسيح أصبحت "عذبة" أو "حلوة" (γλυκυς)، وهي صفة يونانيّة ترتبط بالذوق أو بالرائحة. ونظنّ أنّ المرنّم اختارها ليُعبّر عن الحضور الإلهيّ للإنسان في الإفخارستيّا، ويُشدّد من جديد على أنّ الاشتراك بالإفخارستيّا هو الاشتراك الفعليّ مع المسيح القائم من بين الأموات. نلحظ إذًا، كيف أنّ الهمنوغراف انتقى هذا النصّ الكتابيّ فوضعه في إطار ليتُرجيّ، ثمّ فسّره تفسيرًا خاصًّا فصحيًّا.

تسمح لنا هذه "القراءة الليتُرجيّة" الجديدة بأن ننظر نظرة مختلفة إلى حدث "سرّ" القيامة وارتباطه بسرّ الإفخارستيّا. من هذا المنطلق، يسمح لنا إطار الحياة الإفخارستيّة في الكنيسة بتفسير وعد المسيح بحضوره مع تلاميذه، وفهم كنهه العميق. قد لا يُدرك القارئ هذه النظرة الإيمانيّة لأوّل وهلة إن كان لا يستطيع أن يعيش "القيامة الإفخارستيّة".

أدركنا تمام الإدراك كيف أنّ الكتاب المقدّس هو عنصر مهمّ في التأليف الليتُرجيّ والترنيم الكنسيّ. أضف إلى ذلك أنّه المحور الأساسيّ الذي تدور عليه الهمنوغرافيا البيزنطيّة. فكما أنّ موضوع الفصح يُمثّل حجر الزاوية في الصرح المسيحيّ، جهد المؤلّف على جمع المراجع الكتابيّة ليُبرهن أنّ قيامة المسيح تربط بين مختلف الأفكار والمواضيع التي تطرّق إليها الأنبياء والكتبة الملهمون.

فالقيامة مرتبطة بالحمل الفصحيّ والماء المتدفّق من الصخرة في سفر الخروج، ودور النسوة ومريم في بشارة الرسل، وبالتالي في علاقتها بسرّ الإفخارستيّا ... لم يكتفِ الهمنوغراف بالعودة إلى الكتاب المقدّس، بل أراد قراءته من خلال الفكر الآبائيّ وتفسيره للحدث الإيمانيّ في حياة المسيحيّ.

القسم الثاني: القانون الفصحيّ والفكر الآبائيّ

[٢٦]: **أوذية ٩**، نشيد ١.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

١- بعض المراجع الآبائيّة

لقد أشرنا في المقدّمة أنّ الهمنوغرافيا تغرف موادّها المختلفة من معين الكتاب المقدّس والتقليد الكنسيّ الشريف الذي يتضمّن كتابات الآباء والليتُرجيا والمجامع المسكونيّة... كذلك لا يخلو القانون الفصحيّ الذي يُرجع التقليد نظمه إلى قلم القدّيس يوحنّا الدمشقيّ من مراجع واستشهادات آبائيّة كثيرة.

إستشهدنا في القسم الأوّل بعظة تعود إلى ميليتون أسقف سرديس الذي عاش في الجيل الثاني الميلاديّ، والتي تروي لنا سرّ (μυστηριον) الصليب وقيامة المسيح انطلاقًا من فكرة الفصح اليهوديّ (راجع **خر ١٢**). يقرأ كاتب العظة العهد القديم بكامله وينتقي المواضيع كلّها التي لها علاقة بهذا السرّ الخلاصيّ. ويُفسّرها تفسيرًا مثاليًّا إذ يُطبّقها على المسيح. يجد قارئ هذه العظة عباراتٍ مشتركة بين العظة والقانون الفصحيّ من خلال المواضيع الكتابيّة التي تطرّقنا إليها: رقص داود قدّام التابوت، الحمل الفصحيّ... وعلى سبيل المثال، يجعل أسقف سرديس الحمل شخصًا يُكلّمُ الناس: "... أجل، أنا هو غفران (خطاياكم)، أنا هو فصح الخلاص، أنا هو الحمل الذبيح لأجلكم..."[٢٧].

نعي أنّ ذلك يعود إلى وجود بعض المواضيع العامّة والمشتركة المتعلّقة بقيامة المسيح مع القانون الفصحيّ، وليس إلى تأثير العظة المباشر فيه. يكتب أندره لوسكي في مقال عن موضوع القراءات الآبائيّة طوال السنة الليتُرجيّة: "تُقرأ في هذا اليوم (الفصح) عظتان للقدّيس غريغوريوس النزينزيّ في صلاة السحر"، ويستشهد بكتاب ميجيل أرّأنس "تيبيكون مسّينا"[٢٨].

ويرتأي لوسكي بأنّ الدمشقيّ استخدم العظة، التي مطلعها "يوم القيامة"، كمثال له في نظم القانون الفصحيّ. وهذا ما دفعنا إلى التحرّي عن هاتَين العظتَين ودرسهما (العظة ١ والعظة ٤٥) لنجد فيهما الموضوعات والعبارات التي استوحاها ناظم القانون. كذلك يقترح لوسكي أنّ العظة الآبائيّة في استعمالها الليتُرجيّ في صلاة السحر البيزنطيّة،

---

[٢٧]: Méliton de Sarde, *Sur la Pâque*, SC 123, Paris 1966, §103, pp. 123.

[٢٨]: A.LOSSKY, « le Système des lectures Patristiques prescrites au cours de l'année liturgique par les Typica byzantins : Une forme de prédication intégrée dans l'Office Divin », dans la *Prédication et les Commentaires de la Liturgie.* Conférences S. Serge 1991, Rome 1992, p. 143; M. ARRANZ, *le Typicon du monastère Saint-Sauveur de Messine*, OCA 185, Rome 1969, p.248-249.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

تُؤلّف تفسيرًا وتعليمًا للمؤمنين حول موضوع العيد، أو قراءة حول معاني العيد؛ وهذا ما يُفسّر أهميّة دورها وتأثيرها في قانون يوم العيد. وتُقرأ العظة الأولى عمومًا بعد الأوذية الثالثة والعظة الثانية بعد الأوذية السادسة[٢٩].

٢- القدّيس غريغوريوس النزينزيّ

٢-أ. الخطبة (١). تُؤلّف هذه الخطبة العظة الأولى التي تفوّه بها غريغوريوس في مدينة نزينزا بعد رسامته الكهنوتيّة العام ٣٦٢[٣٠]. تبدأ الفقرة الأولى من هذه العظة بالعبارات التالية: "يوم القيامة وبدء البشرى! فلنحتفل بإشراق هذا الموسم...".

تكوّن عبارة "يوم القيامة" (Αναστασεως ημερα) نقطة انطلاقة القانون الفصحيّ. لربّما أراد الناظم أن يُشير إلى المرجع الأوّل والرئيس الذي استقى منه عباراته، ليُبشِّرَ بحدَث القيامة البهيج. وتتطرّق العظة بعد ذلك إلى موضوع مسامحة الأعداء "بواسطة القيامة" (τη αναστασει)، ذلك الموضوع الذي تستعيده قطع "الفصحيّات" أو استشيرات القيامة، والذي لا نجد له صدى في القانون نفسه.

وننوّه كذلك إلى أنّ الواعظ يتوسّع في موضوع "الفرح والابتهاج" أكثر من ناظم الأوذية الأولى الذي استعار أيضًا منه فعل (λαμπρυνω) "فلنحتفل بإشراق أيّها الشعوب...". تقودُنا فكرة الفرح ومعنى الفعل اليونانيّ المستعمل في هذا المرجع الآبائيّ إلى تفضيل الترجمة التالية:

"(اليوم) يوم القيامة، فلنحتفل بإشراق أيّها الشعوب؛ فالفصح فصح الربّ..." على ترجمة نصّ القانون الفصحيّ الحالي: "فلنتفاخر أيّها الشعوب..."، مع العلم بأنّ معنى الفعل اليونانيّ يتضمّن أيضًا فكرة "الافتخار"[٣١]. ذلك أنّ الانتصار الفصحيّ يجعل الإنسان يعود إلى حالته "الفردوسيّة" الأولى حيث طغى الفرح والابتهاج الحاصل

---

[٢٩]: لوسكي، **المرجع نفسه**، ص١٣٢.

[٣٠]: Grégoire de Nazianze, *Discours* 1-3, J. BERNARDI, Paris 1978, SC 247, pp.72-83

النصوص العربيّة هي من ترجمتنا!

[٣١]: راجع A. BAILLY, *Dictionnaire Grec-Français*, Paris 1950, in loco; *Pentecostaire*, trad. P. Denis Guillaume, 3ème éd., Parma 1994, p.5: “Jour de la Résurrection! Peuples, rayonnons de joie…”.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

من جرّاء التحرير والخلاص. أضِفْ إلى ذلك فكرة الدخول إلى الكنيسة المنوّرة بعد رتبة "الهجمة" التي أقيمت في الخارج.

تبدأ الفقرة الثالثة من العظة بكلمة "أمس" (χθες) ويتوسّع الواعظ في كلامه على معنى الفصح اليهوديّ حسب نصّ **خروج ١٢** الذي كان تحريرًا من العبوديّة. تدلّ كلمة "أمس" إذًا على حالة البشريّة قبل التجسّد، أي قبل المسيح، وخضوعها لفريضة ذبائح العهد القديم. وهذا ما دعا المؤلّف إلى الكلام على الحمل الذبيح في "الأمس"، وقد اتّخذ صورًا، كما رأينا، من خطبة ميليتون أسقف سرديس. ويعود النزينزيّ ويبدأ الفقرة الرابعة من خطبته، بكلمة "أمس"، ويحمّلها معنى مختلفًا عمّا تطرّق إليه سابقًا؛ ونلحظ هنا تأثير العظة في القانون.

"أمس (χθες) صلبتُ (συνεσταυρουμην) مع المسيح، واليوم (σημερον) أتمجّدُ (συνδοξαζομαι) (معه). أمس متُّ معه، واليوم أعودُ معه إلى الحياة (συζωποιουμαι). أمس دفنتُ معه (συνεθαπτομην)، واليوم أنهضُ (συνεγειρομαι) معه" (§٤).

تعبّر كلمة "أمس" في هذه الفقرة الرابعة عن حالة صلب المسيحيّ القديمة وموته التي سبقت قيامته مع المسيح. وتحدّد هذه الفقرة معنى الفصح المسيحيّ، إذ إنّ هدفَ كلّ مسيحيّ مرتبطٌ بموت المسيح وقيامته. يُذكّرنا هذا المقطع الآبائيّ بمراجع عديدة للرسول بولس حيث يكرّر استعمال حرف الجرّ "مع" (**συν-**) الذي يسبق الفعل (Préfixe)، وقد يُترجم بمعنى "المشاركة".

يقول الرسول: "مع أنّنا كنّا أمواتًا بزلاّتنا، أحيانًا **مع** المسيح، (بالنعمة نِلتُم الخلاص)، **وأقامنا معه وأجلسنا معه** في السموات..." (**أف ٢؛ ٥-٦**). كذلك "**فدفنّا معه** في موته... **سنحيا معه**..." (**روم ٦؛ ٤-٨**)، وأيضًا: "فإذا كنّا أبناء الله فنحن ورثة: ورثة الله، و**شركاء** المسيح في الميراث، لأنّنا، إذا **شاركناه** في آلامه، **نشاركه** في مجده أيضًا" (**روم ٨؛ ١٧**). تدلّ هذه الأفعال المُستعمَلة مع حرف الجرّ "مع" في العظة على عمل المسيح وتأثيره في الإنسان. كذلك تشير هذه العبارة "مع" (συν-)، وهي صفةٌ عمل الخلاص، إلى مشاركة الإنسان في عمل المسيح الفدائيّ.

تشدّد النظرة الآبائيّة على فكرة "المشاركة" (συνεργεια) في الخلاص، إذ يقدّم المسيح عمله إلى الإنسان الذي خلقه على صورته ومثاله. ويترك له بالتالي الحرّيّة

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

لقبول هذا العمل أو رفضه. فالخلاص يبدأ من عند الله وينتهي عند الإنسان الذي يقبل في حياته عمل المسيح الخلاصيّ.

إستعاد ناظم القانون حرفيًّا بعض عبارات العظة، واتّخذ طريقةً مشابهةً لها، كما استعمل تعداد الأفعال فيها: "أمس (χθες) دفنتُ معك (συνεθαπτομην)، أيّها المسيح؛ واليوم (σημερον) أنهضُ معك (συνεγειρομαι) بقيامتك. أمس صُلبتُ معك (συνεσταυρουμην)، فأنتَ يا مخلّص مجّدني (συνδοξασον) معك في ملكوتك"[٣٢].

شدّدت عظة النزينزيّ في الفقرة الرابعة ثلاث مرّات على موت المسيح وقيامتِه ومشاركة المسيحيّ إيّاه. واستعملَ الواعظ ستّة أفعال مختلفة مزدوجة، وقدّم كلّ زوج منها بكلمة "أمس" في الجزء الأوّل، وبكلمة "اليوم" في الجزء الثاني. كما نلحظ أنّه مع غريغوريوس أخذت وحدة محتوى الفصح تتجزّأ إلى وحدات ثانويّة بطريقة واضحة، حتّى أصبح زمن الآلام أقلّ أهميّة من زمن القيامة.

أمّا ناظم القانون الفصحيّ، في القطعة السابقة، فاختار زوجَين منها وأعاد التقارب ذاته واستعمل الطريقة نفسها: أمس - اليوم، قبر (الدفن) – قيامة، صليب – مجد. حصل كلّ ذلك في مشاركة الإنسان المسيحَ مخلّصه. كذلك نلحظ أنّ الضمائر المتّصلة في صيغة الغائب (αυτω) في العظة، تتبدّل إلى صيغة المخاطب (σοι) في القانون.

يُقدّم لنا هنا القانون الفصحيّ باختصار مثالاً جديدًا على استشهاد محتوى العظة التي قد تكون معروفةً لدى الجماعة الليتُرجيّة. وتُشدّد القطعة الهمنوغرافيّة أكثر من العظة على تأوين أحداث المسيح الخلاصيّة ومشاركة الإنسان فيها من خلال الليتُرجيا. أجل، يشترك المسيحيّ في الخدمة الليتُرجيّة، في معناها الواسع، أي في الأحداث المحتفل بها. فالأحداث التي تتضمّن دفن المسيح وقيامته، تصبح ركيزة خلاص المؤمن المدعوّ أيضًا إلى أن يموت في المعموديّة، ليُشارك المسيح في قيامته ومجده.

إنطلاقًا من النصوص البولسيّة، تغدو فكرة الموت والقيامة والمجد حقيقةً واقعيّةً تُعبّر عنها العظة والهمنوغرافيا الفصحيّة. هذا وإنّ الليتُرجيا تحقّق مشاركة الكائن البشريّ في عمل المسيحيّ الخلاصيّ. فالمسيحيّ في مشاركته القبر والصلب، وبالتالي رفضه

---

[٣٢]: **أوذية ٣**، نشيد ٢؛ راجع R. CANTALAMESSA, *La pâque dans l'Eglise ancienne*, Peter Lang, Berne 1980, §69-70, pp.116-117. يكتب كانتالامسّا: "نجد عند غريغوريوس النزينزيّ الذي من الكبادوك نظرة حول الفصح قريبة من نظرة أوريجانس على المستوى اللاهوتيّ، وبعيدة كلّ البُعد على المستوى الليتُرجيّ". (المقدّمة، ص٢٣). راجع أيضًا نيقولا أنتيبا، "السجود للصليب الكريم في الأحد الثالث من الصوم" بحسب التقليد الليتُرجيّ اليونانيّ، في **المشرق** ٢٠٠٩، ص٢٣٧-٢٦٧.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

الخطيئة وموته عنها، يحظى بالخيرات التي وعد بها المسيح، أي المشاركة في القيامة والمجد.

يُخاطب المصلّي الآن هذا المسيح المخلّص. كما يضع المرنّم عبارة "مجّدني معك" في صيغة الأمر في نهاية القطعة ليُشير إلى طلب المشاركة. وتعبّر هذه الفكرة التفصيليّة عن مظهر مهمّ في التعليم الإلهيّ الذي يُشدّد على أنّ الله يمنح الخيرات الموعود بها بعد أنْ يسأله الإنسان ذلك. يُلقي هذا الطلب ضوءًا جديدًا على القانون الفصحيّ.

٢-ب. الخطبة (٤٥). ألقى القدّيس هذه العظة لِمناسبة عيد الفصح المقدّس بعد أن ترك مهامه الأسقفيّة حوالى العام ٣٨٣ وعاد إلى بلدته أرينزا للاستراحة وطلب الوحدة. إنّها عظة جميلة وطويلة في آن[٣٣]. ونلحظ منذ الآن أنّ المرنّم يستشهد ببعض مقاطع الخطبة، وخصوصًا مطلعها، كما فعل في الخطبة الأولى.

"إنّي أقفُ على مرصدي" يقول العجيب حبقّوق. وأنا اليوم، وقد خوّلني الروح السلطان والنظر، سأرقب معه فأعرف ماذا يتراءى وماذا يُقال لي. بل قد انتصبتُ ورقبت إذا برجل راكب على السحب، مرتفعٌ جدًّا، منظرُه كمنظر ملاك، وحلّته كوميض البرق الخاطف، قد رفع يده إلى المشارق وهتف بصوت عظيم، وكان صوتُه كصوت البوق وحوله شبهُ جمهور من الجند السماويّين، فقال: "اليوم للعالم خلاص، سواء المنظور وغير المنظور. المسيح قام من بين الأموات فانهضوا معه..."[٣٤].

يعتبر الواعظ نفسه خليفة النبيّ الرائي. يُوحي هذا المقطع من الخطبة مباشرةً إرمس الأوذية الرابعة من قانون الفصح: "ليقفْ معنا على المرصد الإلهيّ، حبقّوق الناطق بالإلهيّات، وليرنا الملاك المتّشح الضياء، قائلاً جهارًا: اليوم للعالم خلاص. لأنّ المسيح قام، بما أنّه على كلّ شيء قدير". لكنّ الناظم بدّل إراديًّا محتوى الرؤيا التي كانت تُشير إلى الملاك في السماء، فأصبح الآن بالقرب من القبر، و"معنا" (μεθ'υμων)، يتوجّه بالكلام "إلينا" وليس للنسوة التي تمثّل البشيرات الأولى قبل الرسل. إختلف كلام الملاك عن الكلام الذي نجده في رواية الترائيّات الإنجيليّة، وأصبح "خلاصُ العالم" النتيجة

---

[٣٣]: راجع الترجمة الفرنسيّة في E. DEVOLDER, S. *Grégoire de Nazianze, homélies*, Namur 1962 ; pp.118-162؛ أخذنا النصّ العربيّ من الترجمة التي قام بها الأب غريغوريوس فرحات، ونشرها الأب فايز فريجات، في **إنجيلك نور لحياتي**، الجزء الثاني، منشورات اليوبيل المئويّ الثالث للرهبانيّة المخلصيّة، لا مكان، ١٩٨٥، ص٦١١-٦١٩. يُشير كتاب المراسم الليتُرجيّة إلى قراءتها مع الخطبة الأولى التي تكلّمنا عليها في صلاة السحر الفصحيّة.

[٣٤]: §١، ص٦١١-٦١٢.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

الرئيسيّة لقيامة المسيح. لا عجبَ إذا غيّر المرنّم، وهي من عادته، حرفيّة الكتاب ليتوسّع في القراءة وتصبح بالتالي تقليدًا تفسيريًّا يدور على حدث القيامة الخلاصيّ الرئيسيّ.

يستعيد إرمس الأوذية الخامسة موضوع السهر الذي يُذكّرنا بنبوءة أشعيا: "من الليل يبتكر روحي..." (٢٦؛ ٩). "لنبكّر مدلّجين، ولنقدّم للسيد التسبيح عوضَ الطيب. ولنعاين المسيح شمس العدل، ناشرًا الحياة للجميع". يحثّ المرنّم بالتالي المشاركين في الصلاة على السهر ليكونوا مستعدّين ويحملوا إلى القائم من بين الأموات، مثل حاملات الطيب الجديدات، التسبيح والنشيد (υμνος) عوضًا عن الطيوب. كذلك فكرةُ تسبيح الربّ حاضرةٌ في خطبة غريغوريوس: "... وأمّا نحن فنقرّب الخطبة وهي أجمل وأنفس ما لدينا مشيدين فيها للكلمة على نعمة الطبيعة الناطقة..."[٣٥]. ترد كذلك بعض العبارات الغريغوريّة حرفيًّا في إرمس الأوذيّة الثامنة: "عيد الأعياد وموسم المواسم..."[٣٦].

تطرّقنا في ما سبق إلى موضوع "ذبيحة الحمل" المهمّ، وشدّدنا على الارتباط المتين بين القانون الفصحيّ ونصّ سفر الخروج. يتبيّن لنا أنّ المرنّم في أوذية القانون الرابعة استقى الكثير من معين الخطبة. أجل، لقد شرح الخطيب باستضافة معنى كلّ من العبارات الواردة في القطع الهمنوغرافيّة: "... تلك **الذبيحة** العظيمة غير المضحّاة التي هي ... كفّارة أبديّة **عن كل العالم**. من أجل ذلك، يؤخذ **حمل** لنقاوة وثوب العري القديم، فإنّ الضحيّة المقرّبة عنّا هي على هذا المثال كائنة ومدعوّة ثوب عدم الفساد. **كاملٌ** ليس فقط من أجل الألوهة التي لا شيء أكمل منها... **ذَكَرٌ**، لكونه مقرّبًا عن آدم ... **حوليّ**، كشمس العدل، ... **وكإكليل الجود المبارك**، والمتعادل المماثل من كلّ أطرافه... **بريء من العيب**، لا غشّ فيه لأنّه شافي العيوب والرذائل..."[٣٧].

إختار الناظمُ العبارات المهمّة التي سطّرناها في الخطبة ووضعها في قالبه الخاصّ لتصبح: "إنّ إكليلنا الفاخر الذي نباركه، ذُبح لأجل الجميع طوعًا كحمل حوليّ، فصحًا مطهّرًا، ثمّ أشرق لنا من القبر كشمس عدل بهيّة"[٣٨]، "لقد ظهر فصحنا المسيح، الذَكَر... وبما أنّه إلهٌ حقٌّ سُمِّيَ كاملاً"[٣٩].

---

[٣٥]: § ٢، ص٦١٢.

[٣٦]: الفقرة نفسها.

[٣٧]: §١٣، ص٦١٥.

[٣٨]: **أوذية ٤**، نشيد ٢.

[٣٩]: **أوذية ٤**، نشيد ١.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

كذلك لا يخفى على قارئ الخطبة أن يلحظ سريعًا أنّ الفقرة الأخيرة من الخطبة قد أوحت للمرنّم نشيد "المجد" في الأوذية التاسعة من القانون الفصحيّ. يُخاطب الواعظ "الفصحَ" كما يخاطب شخصًا ما، ليصبح "كلمة الله" (λογος): " فيا أيّها الفصح العظيم المهيب، كفّارة العالم جميعه، إنّما أخاطبكَ كذي نفسي حيّة. يا كلمة الله النور والحياة والحكمة والقوّة، فإنّني أطرب بكافّة أسمائك. يا وليد العقل العظيم وحميته وختمه، أيّها الكلمة المعقول والإنسان المنظور الحامل كلّ شيء مقيّدًا بكلمة قدرتك، مَن لي بأن تقبل الآن هذه الخطبة، لا باكورةً منّي بل ربّما آخر جناي. شكرًا وابتهالاً إليك..."[٤٠].

تؤلّف هذه الإشارات الكيستولوجيّة القويّة بداية صلاة يرفعها الخطيب إلى كلمة الله القائم من بين الأموات، ويُسمّيه "الفصح" مع سلسلة من الصفات استوحاها أيضًا من الرسول بولس (راجع **١ قور ١؛ ٢٤** "فهو مسيحٌ، قدرةُ الله وحكمة الله").

يُوجّه المرنّم بدوره نشيد "المجد" في الأوذية التاسعة إلى "المسيح – الفصح"، ويستعيد جزءًا من الصفات التي وجدها في الخطبة مثل "حكمة، كلمة، قوّة" (σοφια, λογος, δυναμις): "أيّها المسيح، الفصح الكبير الأقدس، يا حكمة الله وكلمته وقوّته، أنعم علينا أن نشاركك أكمل مشاركة في نهار ملكك الذي لا مساء له". كما يمنح هذه الصفات نفحةً اسكتولوجيّة متأتيّةً من المشاركة مع المسيح في يوم المُلك الذي لا مساء له.

توحي لنا هذه النفحةُ الاشتراك المُسبق الذي يحصل دائمًا في كلّ احتفال إفخارستيّ. أراد المرنّم أن يُشدّد بهذه الطريقة على المشاركة الإفخارستيّة في استعماله العبارة اليونانيّة (εκτυπωτερον) التي تذكّر "بالمثال" (τυπος) والتي تعني "أكثر وفقًا للمثال". "فالمشاركة" الإفخارستيّة الحاليّة في زمن الكنيسة حقيقيّةٌ، ولكنّها تسعى، بعد أن تتعمّق "وفقًا للمثال"، إلى أن تكتمل حتّى يوم مجيء الملكوت النهائيّ. كذلك يشترك المؤمن في الملكوت كُلّما يسعى إلى الاقتراب من "المثال" من خلال الاحتفال الليتُرجيّ. هكذا تشدّد هذه القطيعة الليتُرجيّة وبطريقة مقتضبة على طابع مشاركة الإنسان التدريجيّ في الحياة الإلهيّة وهو في مسيرته الأرضيّة.

خاتمة

نعتبر القانون الفصحيّ قطعوة همنوغرافيّة رئيسيّة فريدة من نوعها، إذ إنّها تحظى، قبل كلّ شيء، بشعبيّة كبيرة في الكنيسة البيزنطيّة. فالكبار والصغار يتهافتون معًا إلى

[٤٠] § ٣٠، ص٦١٩.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

الاشتراك في رتبة "الباكريّة"، بالصلاة والترنيم صباح الأحد العظيم المقدّس، هذا "العيد الشريف والبهيج، وهذه الليلة الخلاصيّة"[٤١]. ويساعد القانون الفصحيّ من خلال طابعه الشعريّ واقتضاب عباراته في إعطاء هذا الاحتفال حلّة قشيبة، ويضع العيد "الكبير" في إطار تملؤه البهجة والفرح.

كانت الخطب الآبائيّة للهمنوغرافيّ بمثابة معين عظيم استوحى منها الكثير. أجل، أشرنا إلى أهمّيّة الخطبَتَيْن في تأليف القانون، وقد يعود ذلك لاحترام الناظم الخطيب النزينزيّ وإجلالِه إيّاه. كذلك استعمل الناظم بعض الكتابات الآبائيّة الأخرى واتّخذ منها بعض الأفكار والعبارات التي وردت عند القدّيس ميليتون أسقف سرديس. غير أنّ الموضوعات اللاهوتيّة تبقى أغزر وأعمق في الخطب الآبائيّة، بالرغم من أنّ التسبيح من خلال الشعر حاضر تمامًا فيها.

وتستخدم الهمنوغرافيا الطريقة الشعريّة الواضحة لتعبّر عن تلك العناصر النظريّة واللاهوتيّة، الحياتيّة والتطبيقيّة، خصوصًا في ما يتعلّق بالموادّ الروحيّة والأسراريّة. أضفْ إلى ذلك أنّ الهمنوغرافيا الفصحيّة لا تستنزف موادّ مصادرها كلّها.

تجدر الإشارة إلى أنّ الهمنوغرافيا تأخذ أيضًا النصوص الكتابيّة، من دون أن تظلّ سجينة تلك المراجع في الفكر الآبائيّ، وتقدّم تفسيرًا مثاليًّا وخلاصيًّا (Sotériologique) **يخصُّ تلك المراجع**: كالشراب، ورقصة داود، ومعنى الكرمة الإفخارستيّ... لكنّنا نلحظ شيئًا مهمًّا في التعامل المتواصل بين الموضوعات الكتابيّة والآبائيّة والهمنوغرافيّة، وكلّها عناصر رئيسيّة في تقليد الكنيسة الشريف. يؤلّف إنشاد الهمنوغراف صدى لصوت الكنيسة "التقليديّ" الذي يكيّفه في قالب لغويّ شيّق. ويستعين بالأفكار والعبارات والألفاظ التي يستعملها في مجالات التسبيح والحمد والعقيدة والتعليم ليوصل هذا التقليد إلى ذهن المؤمن.

ونجدنا أيضًا أمام علاقةٍ وثيقةٍ بين الاحتفال بحدث القيامة وبين الإعلان عن نتيجته الحتميّة، أي خلاص الجنس البشريّ وتحريره من عبوديّة الخطيئة والموت. فتعابيرُ الفرح المتكرّرة وتسبيحُ القائم من بين الأموات والاحتفالُ بخلاص الإنسان لا تُعرض عن بعض التفاسير الموضوعيّة في رواية حدث القيامة كالمجيء إلى القبر والترائيّات... أو في تحقيق نبوءات العهد القديم وأحداثه التي ترمز إلى القيامة. بالتالي لا يواجهُ المرنّم في الكنيسة الجماعة المحتفلة، بل يعتبر نفسه أحد أعضائها، وفي "قلبها".

---

[٤١]: **أوذية ٧**، نشيد ٣.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

لقد دلّتنا دراسة بعض المراجع السريعة على أنّ القانون الفصحيّ مثالٌ جيّدٌ نستطيع أن نأخذ به لنكتشف طريقة الهمنوغرافيّ في استعمال نصوص **الكتاب المقدّس** والخطب والعظات المأخوذة من التقليد الآبائيّ، استعمالاً حرًّا في تأليف ترانيمه ونظمها نصًّا حيويًّا ووضعها في إطار شعريّ. ويضمن بقاءُ الهمنوغراف داخل إطار **الكتاب المقدّس** والليتُرجيا قيمة التعليم التقليديّ، بما فيه الصلاة بنوع خاصّ، هذا التعليم الذي يسعى إلى تقديس المشترك في التسبيح أو تأليهه.

أجل، يستوعب المؤمن التعليم العقائديّ فكريًّا وروحيًّا، في اشتراكه في الاحتفال الليتُرجيّ، كما أنّه يحظى عمليًّا بمفاعيل التقديس. نشير هنا إلى عبارة "الأقداس للقدّيسين" التي يلفظُها الكاهن في الذبيحة قبل المناولة!

لقد وجدنا بعض عناصر السرّ المسيحيّ التعليميّة الأساسيّة مثل عبور البحر الأحمر الذي يُشير إلى تحرير الجنس البشريّ بأكمله من تبعة الشرّ، أو مجيء النسوة إلى القبر الفارغ، وكلّها أحداث تساعد المشترك في الليتُرجيا في أن يعي بيقين حقيقة قيامته الشخصيّة بعد قيامة المسيح. وتتفاعل هذه الموضوعات معًا باستمرار في همنوغرافيّة القانون الفصحيّ.

فاستعادة الموضوعات العقائديّة وخصوصًا تلك المتّصلة بالخلاص تُضفي على هذه القطعة الشعريّة الفصحيّة قبولاً في الكنيسة التي تمنحها بدورها مكانةً قانونيّة أو نموذجيّة، إلى درجة تشبه المقياس الذي يجب أن تتحلّى به عبارة عقيدة الكنيسة الليتُرجيّة. يأتي أيضًا قبولُ القانون الفصحيّ بطابعه القانونيّ (Normatif) من اختيار المصادر اللاهوتيّة المميّزة التي يستعين بها الهمنوغراف، تلك المراجع المعروفة بسلطتها وقانونيّتها وأهمّيّتها ودورها، والتي تؤلّف جزءًا لا يتجزّأ من التقليد الكنسيّ.

إنطلاقًا من هذا المثل، مثل القانون الفصحيّ، نستطيع مع فهمنا الصحيح معنى عبارة "التقليد" (παραδοσις) الآبائيّة، أن نحدّد طابع القطعة الهمنوغرافيّة التقليديّ. أجل، يعتبرها التقليد حقيقةً لاهوتيّةً، ويميّزها في الوقت نفسه عن التراث أو مجموعة التقاليد الموروثة عن الماضي التاريخيّ البحت. إنطلاقًا من هذا المفهوم للتقليد، يحتوي هذا التأليف الهمنوغرافيّ الذي تطرّقنا إلى دراسته، داخل هذا الإطار، طابعًا تقليديًّا يحلّ محلّ نموذج له سلطانٌ لاهوتيٌّ تعليميّ. أجل، فالقانون الفصحيّ الذي تقبله الكنيسة البيزنطيّة جمعاء وتتمسّك به بكلّ ثبات، يؤدّي فيها دورًا مميّزًا ليكون قانونًا أو مقياسًا للطريقة الليتُرجيّة في استعمال التعابير اللاهوتيّة.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

وبفضل القانون الفصحيّ، يتغذّى أعضاء الجماعة الليتُرجيّة الذين لا صلة لهم بالمراجع الآبائيّة، بالعناصر العقائديّة الأساسيّة التي تتّصل بعمق الهدف الذي يتوخّاه المؤمن المسيحيّ. فالقانون الفصحيّ يحتفل بقيامة المسيح من القبر، ذلك الحدث الذي جعل قيامة الإنسان مُمكنة. لذلك نجد في آخر المقطوعة الشعريّة بعض العبارات التي تقدّم أيضًا إلى المسيحيّين سبيلاً ليسبقوا ويحظوا منذ الآن بقدرة القيامة الحقيقيّة من دون أن يصلوا إلى كمالها. هذا ما تردّده العبارة اللاتينيّة "Iam Sed nondum". وينجلي هذا السبيل من خلال الاشتراك بالإفخارستيّا الذي يعبّر عنه ناظم القانون بفكرة المشاركة الدائمة في ملكوت القائم من بين الأموات. لم يعد الفصح "يومًا" كسائر أيّام السنة؛ إنّه اليوم الحقيقيّ والوحيد الذي يُغدق طابعه الخاصّ على سائر الأيّام. يبقى "نهارًا لا مساء له" إذ يُنير روزنامة الكنيسة بأشعّته ولمعانه، وبالتالي حياة كلّ مؤمن. ويُؤكّد الناظم ذلك بقوله: "أيّها المسيح، ... أنعم علينا أن نشاركك أكمل مشاركة في نهار مُلكك الذي لا مساء له"[٤٢].

وهكذا تؤلّف الليتُرجيا بكاملها طريقةً خاصّةً ومميّزة لإيصال كلام الله المسموع والمفسّر الذي تقدّمه الكنيسة – الأمّ إلى أبنائها ليطبّقوه في حياتهم الروحيّة والمعيشيّة. وتظلّ الحقيقة المسيحيّة إلهيّةً وإنسانيّةً معًا (Théandrique)، لأنّها، من جهة، ترتبط بالخالق والمخلّص الذي هو "الحقّ"، وتلتصق، من جهة ثانية، بالخليقة وآخرة الإنسان الذي يتوق إلى الحقيقة.

[٤٢]: أوذية ٩، نشيد ٢. راجع أيضًا Hiéromoine Elisée, « La Nuit Pascale », dans le Lien n°1, 72° année, 2007, pp.36-40.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com